بسم الله الرحمن الرحيم

الكشف والتبيين
فى غرور الخلق أجمعين

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم آمين! ! به ثقتى.

الحمد لله وحده، وصلى الله على خير خلقه سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.

وبعد: فهذا كتاب الكشف والتبيين فى غرور الخلق أجمعين.

اعلم أن الخلق قسمان: حيوان وغير حيوان. والحيوان قسمان: مكلف وغير مكلف؛ فالمكلف من خاطبه والله بالعبادة، وأمره بها، ووعده بالثواب عليها، ونهاه عن المعاصى، وحذره العقوبة؛ وغير المكلف من لم يخاطبه بذلك. ثم المكلف قسمان: مؤمن وكافر. والمؤمن قسمان: طائع وعاص؛ وكل واحد من الطائعين والعاصين ينقسم إلى قسمين: عالم وجاهل.

ثم رأيت الغرور لازمًا لجميع المكلفين والمؤمنين والكافرين إلا من عصمه الله رب العالمين. وأنا إن شاء الله تعالى أكشف عن غرورهم، وأبين الحجة فيه، وأوضحه غاية الإيضاح، وأبينه غاية البيان، بأوجز ما يكون من العبارة، وأبدع ما يكون من الإشارة؛ فأقول وما توفيقى إلا بالله:

واعلم أن المغرورين من الخلق ما عدا الكافرين أربعة أصناف: صنف من العلماء، وصنف من العباد، وصنف من أرباب الأموال، وصنف من المتصوفة. فأول ما نبدأ به غرور الكفار، وهم فى غرورهم قسمان: منهم من غرته الحياة الدنيا، ومنهم من غره بالله الغرور. فأما الذين غرتهم الحياة الدنيا فهم الذين قالوا: النقد خير من النسيئة، ولذات الدنيا يقين ولذات الآخرة شك، ولا يترك اليقين بالشك؛ وهذا قياس فاسد، وهو قياس إبليس لعنه الله فى قوله أنا خير منه، فظن أن الخيرية فى السبب.

وعلاج هذا الغرور شيئان إما بتصديق وهو الإيمان، وإما ببرهان. أما التصديق فهو أن يصدق الله تعالى فى قوله: ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [القصص: ٦٠]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥، الحديد: ٢٠]. وتصديق الرسول فيما جاء به. وأما البرهان فهو أن يعرف وجه فساد قياسه أن قوله: «الدنيا نقد والآخرة نسيئة» مقدمة صحيحة، وأما قوله: «النقد خير من النسيئة» فهو محل

التلبيس، وليس الأمر كذلك، بل إن كان النقد مثل النسيئة فى المقدار والمقصود فهو خير، وإن كان أقل منها فالنسيئة خير منه؛ ومعلوم أن الآخرة أبدية والدنيا غير أبدية. وأما قولهم: «لذات الدنيا يقين ولذات الآخرة شك» فهو أيضًا باطل؛ بل ذلك يقين عند المؤمنين، وليقينه مدركان: أحدهما الإيمان والتصديق على وجه التقليد للأنبياء والعلماء كما يقلد الطبيب الحاذق فى الدواء، والمدرك الثانى الوحى للأنبياء والإلهام للأولياء. ولا تظن أن معرفة النبى ﷺ لأمور الآخرة ولأمور الدنيا تقليد لجبريل عليه السلام، فإن التقليد ليس بمعرفة صحيحة، والنبى ﷺ حاشاه من ذلك، بل قد انكشف له الأشياء وشاهدها بنور البصيرة كما شاهد المحسوسات بالعين الظاهرة.

فصل

والمؤمنون بألسنتهم وعقائدهم إذا ضيعوا أوامر الله، وهى الأعمال الصالحة، وتدنسوا بالشهوات، فهم مشاركون الكفار فى هذا الغرور، فالحياة الدنيا للكافرين والمؤمنين جميعًا غرور.

فأما غرور الكافرين بالله فمثاله قول بعضهم فى أنفسهم بألسنتهم: إنه إن كان الله معيدنا فنحن أحق به من غيرنا؛ كما أخبر الله عنهم فى سورة الكهف [الآيتان: ٣٥، ٣٦] حيث قال: ﴿**مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا**﴾ وسبب هذا الغرور قياس من أقيسة إبليس لعنه الله، وذلك أنهم ينظرون مرة إلى نعم الله عليهم فى الدنيا فيقيسون عليها نعم الآخرة، ومرة ينظرون إلى تأخير عذاب الله عنهم فى الدنيا فيقيسون عليه عذاب الآخرة. كما أخبر الله عنهم أنهم يقولون: ﴿**لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ**﴾ [المجادلة: ٨]. ومرة ينظرون إلى المؤمنين وهم فقراء فيزدرونهم ويقولون: ﴿**أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا**﴾ [الأنعام: ٥٣]. ويقولون: ﴿**لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ**﴾ [الأحقاف: ١١]. وترتيب القياس الذى نظم قلوبهم أنهم يقولون: «قد أحسن الله إلينا بنعيم الدنيا، وكل محسن فهو محب وكل محب فهو محسن» وليس كذلك، بل يكون محسنًا ولايكون محبًا، بل ربما يكون الإحسان سبب هلاكه على التدريج؛ وذلك محض الغرور بالله تعالى، ولذلك قال ﷺ: «**إِنَّ الله يَحمى عَبْدَهُ المُؤْمنَ منَ الدُّنْيا كَمَا يَحْمى أَحَدُكُمْ مَريضَهُ منَ الطَّعَام وَالشَّراب وَهُوَ يُحبهُ**». وكذلك كان أرباب البصائر إذا أقبلت عليهم الدنيا حزنوا، وإذا أقبل عليهم الفقر فرحوا وقالوا مرحبًا بشعائر الصالحين، وقد قال تعالى: ﴿**فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ**﴾ [الفجر: ١٥]. وقال تعالى: ﴿**أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ**﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦]. وقال تعالى: ﴿**سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [الأعراف: ١٨٢، القلم: ٤٤]. ﴿**وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ**﴾ [الأعراف:

١٨٣، القلم: ٤٥]. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا به فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]. فلم يؤمن بالله من آمن بهذا الغرور. ومنشأ هذا الغرور الجهل بالله وبصفاته، فمن عرف الله فلا يأمن من مكره. ولا ينظرون إلى فرعون وهامان والنمرود ماذا حل بهم مع ما أعطاهم الله من المال، وقد حذر الله من مكره فقال تعالى: ﴿فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]. وقال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤]. وقال تعالى: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق: ١٧]. فمن أولاه الله نعمة فليحذر أن تكون نقمة.

فصل

وأما غرور العصاة من المؤمنين فقولهم: «غفور رحيم وإنما نرجو عفوه». فاتكلوا على ذلك وأهملوا الأعمال ـ وذلك من قبل الرجاء محمود في الدين ـ وإن رحمة الله واسعة، ونعمته شاملة، وكرمه عميم، إنا موحدون مؤمنون، ونرجو بوسيلة الإيمان، والكرم والإحسان. وربما كان منشأ حالهم التمسك بصلاح الآباء والأمهات، وذلك نهاية الغرور، فإن آباءهم مع صلاحهم وورعهم كانوا خائفين، ونظم قياسهم الذى سول لهم الشيطان: أن من أحب إنسانًا أحب أولاده، فإن الله قد أحب آباءكم فهو يحبكم، فلا تحتاجون إلى الطاعة، فاتكلوا على ذلك واغتروا بالله. ولم يعلموا أن نوحًا عليه السلام أراد أن يحمل ابنه فى السفينة، فمنع، وأغرقه الله بأشد ما أغرق به قوم نوح، وأن النبى ﷺ استأذن فى زيارة قبر أمه وفى الاستغفار لها، فأذن له فى الزيارة ولم يؤذن له فى الاستغفار ونسوا قوله تعالى: ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر: ١٨]. وقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩]. فإن من ظن أنه ينجو بتقوى أبيه، كمن ظن أنه يشبع بأكل أبيه أو يروى بشرب أبيه، والتقوى فرض عين لا يجزى فيها والد عن والده، وعند جزاء التقوى يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه إلا على سبيل الشفاعة. ونسوا قوله ﷺ: «الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْت، والعَاجزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاها وَتَمَنَّى عَلَى الله الأَمَانِىَّ»، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨]. وقال تعالى: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]. وهل يصح الرجاء إلا إذا تقدمه عمل؟ فإن لم يتقدمه عمل فهو غرور لا محالة، وإنما ورد الرجاء لتبريد حرارة الخوف واليأس، ولتلك الفائدة نطق به القرآن والترغب فى الزيادة لا محالة.

فصل

ويقرب منهم غرور طوائف لهم طاعات ومعاص، إلا أن معاصيهم أكثر، وهم يتوقعون المغفرة ويظنون أن ترجح كفة حسناتهم، وكفة سيئاتهم أكثر. وهذا غاية الجهل، فترى الواحد يتصدق بدراهم عديدة من الحلال والحرام، ويكون ما يتناوله من أموال الناس والشبهات أضعافه، فهو كمن وضع فى كفة الميزان عشرة دراهم ووضع فى الكفة الأخرى ألفًا. وأراد أن تميل الكفة التى فيها العشرة، وذلك غاية الجهل.

فصل

ومنهم من يظن أن طاعته أكثر من معاصيه، لأنه لا يحاسب نفسه ولا يتفقد معاصيها، وإذا عمل طاعة حفظها واعتد بها، كالذى يستغفر الله بلسانه ويسبح بالليل والنهار مثلاً مائة مرة وألف مرة، ثم يغتاب المسلمين ويتكلم بما لا يرضاه الله طول النهار، ويلتفت إلى ما ورد من فضل التسبيح ويغفل عما ورد فى عقوبة الكذابين والنمامين والمنافقين؛ وذلك محض الغرور، فحفظ لسانه عن المعاصى آكد من تسبيحه، فسبحان من صدنا عن التنبيه.

فصل

بيان أصناف المغرورين وأقسام كل صنف

الصنف الأول من المغرورين: العلماء

وهم فرق:

(فرقة منهم) لما أحكمت العلوم الشرعية والعقلية، تعمقوا فيها، واشتغلوا بها، وأهملوا تفقد الجوارح وحفظها عن المعاصى وإلزامها الطاعات، واغتروا بعلمهم، وظنوا أنهم عند الله بمكان، وأنهم قد بلغوا من العلم مبلغًا لا يعذب الله مثلهم، بل يقبل شفاعتهم فى الخلق ولا يطالبهم بذنوبهم وخطاياهم. وهم مغرورون، فإنهم لو نظروا بعين البصيرة لعلموا أن العلم علمان: علم معاملة، وعلم مكاشفة وهو العلم بالله تعالى وبصفاته؛ فلا بد من علوم المعاملة لتتم الحكمة المقصودة، وهى المعاملة بمعرفة الحلال والحرام، ومعرفة أخلاق النفس المذمومة والمحمودة. ومثلهم مثل طبيب يطبب غيره وهو عليل قادر على طب نفسه فلم يفعل، وهل ينفع الدواء بالوصف؟ هيهات لا ينفع الدواء إلا من شربه بعد الحمية؛ وغفلوا عن قوله تعالى: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا** ﴾ [الشمس: ٩، ١٠]. ولم يقل: «من يعلم تزكيتها وكتب علمها وعلمها الناس».

وغفلوا عن قوله ﷺ : «مَن ازْدَادَ علْمًا ولَمْ يَزْدَدْ هُدًى لَمْ يَزْدَدْ منَ الله إلاَّ بُعْدًا»، وقوله ﷺ : «إنَّ أَشَدَّ النَّاس عَذَبًا يَوْمَ القيامَة عَالمٌ لَمْ يَنْفَعْهُ الله بعلْمه»، وغير ذلك كثير. وهؤلاء مغرورين نعوذ بالله من حالهم، وإنما غَلبَ عليهم حب الدنيا وحب أنفسهم وطلب الراحة العاجلة، وظنوا أن علمهم ينجيهم فى الآخرة من غير عمل.

(وفرقة أخرى) أحكموا العلم والعمل الظاهر، وتركوا المعاصى الظاهرة، وغفلوا عن قلوبهم، فلم يمحوا منها الصفات المذمومة عند الله كالكبر والرياء والحسد وطلب الرياسة والعلو وإرادة السوء بالأقران والشركاء وطلب الشهرة فى البلاد والعباد، وذلك غرور سببه غفلتهم عن قوله ﷺ : «الرِّيَاءُ الشرْكُ الأَصْغَرُ» وقوله ﷺ : «الحَسَدُ يَأْكُلُ الحَسنات كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الحَطَبَ» وقوله ﷺ : «حُبُّ المَال والشَّرَف يُنْبتَان النِّفَاقَ فى القَلْبَ كَمَا يُنْبتُ المَاءُ البَقْلَ»، إلى غير ذلك من الأخبار، وغفلوا عن قوله تعالى: ﴿إلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بقَلْبٍ سَليمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩]. فغفلوا عن قلوبهم واشتغلوا بظواهرهم؛ ومن لايَصْغى قلبه لا تصح طاعاته، وهو كمريض ظهر به الجرب فأمره الطبيب بالطِّلاء وشرب الدواء، فاشتغل بالطلاء وترك شرب الدواء، فأزال ما بظاهره ولم يزل ما بباطنه، وأصل ما على ظاهره مما فى باطنه، فلا يزال جربه يزداد أبدًا مما فى باطنه، فلو زال ما فى باطنه استراح الظاهر؛ فكذلك الخبائث إذا كانت كامنة فى القلب يظهر أثرها على الجوارح.

(وفرقة أخرى) علموا هذه الأخلاق الباطنة وعلموا أنها مذمومة من جهة الشرع، إلا أنهم لأجل تعجبهم بأنفسهم يظنون أنهم منفكون عنها، وأنهم أرفع عند الله من أن يبتليهم بذلك، وإنما يبتلى به العوام دون من بلغ مبلغهم فى العلم، فأما هم فهم أبلغ عند الله من أن يبتليهم بذلك، وظهرت عليهم مخايل الكبر والرياسة، وطلب العلو والشرف، وغرورهم أنهم ظنوا أن ذلك ليس بكبر وإنما هو عز للدين وإظهار لشرف العلم ونصرة دين الله، وغفلوا عن فرح إبليس به، وعن نصرة النبى ﷺ بماذا كانت وبماذا أرغم الكافرين، وغفلوا عن تواضع الصحابة وتذللهم وفقرهم ومسكنتهم، حتى عوتب عمر رضي الله عنه على بذاذته عند قدومه الشام فقال: إنا قوم أعزنا الله بالإسلام لانطلب العز فى غيره.

ثم هذا المغرور يطلب عز الدين بالثياب الرفيعة، ويزعم أنه يطلب عز العلم وشرف الدين، ومهما أطلق اللسان بالحسد فى أقرانه أو فيمن رد عليه شيئًا من كلامه لم يظن بنفسه أن ذلك حسد ويقول: إنما هو غضب للحق، ورد على المبطل فى عداوته وظلمه، وهذا مغرور، فإنه لو طعن على غيره من العلماء من أقرانه ربما لم يغضب بل ربما يفرح، وإن أظهر الغضب عند الناس فقلبه ربما يحبه، وربما يظهر العلم ويقول: غرضى به أفيد الخلق؛ وهو به مُراء، لأنه لو كان غرضه صلاح الخلق لأحب صلاحهم على يد غيره ممن هو مثله أو فوقه أو دونه.

وربما يدخل على السلاطين ويتودد إليهم ويثني عليهم، فإذا سئل عن ذلك قال: إنما غرضي أن أنفع المسلمين وأدفع عنهم الضرر؛ وهو مغرور، فلو كان غرضه ذلك لفرح به إذا جرى على يد غيره، ولو رأى من هو مثله عند السلطان يشفع في أحد لغضب.

وربما أخذ من أموالهم، فإذا خطر بباله أنه حرام قال له الشيطان: هذا مالٌ بلا مالك، وهو لمصالح المسلمين، وأنت إمام المسلمين وعالمهم، وبك قوام الدين. وهذه ثلاث تلبيسات: أحدهما أنه مال لا مالك له، والثاني أنه لمصالح المسلمين، والثالث أنه إمام؛ وهل يكون إمامًا إلا من أعرض عن الدنيا كالأنبياء والصحابة وأفاضل علماء هذه الأمة؟ ومثله كما قال عيسى عليه السلام: العالم السوء كصخرة وقعت في فم الوادي، فلا هي تشرب الماء، ولا هي تترك الماء يخلص إلى الزرع.

وأصناف غرور أهل العلم كثيرة وما يفسد هؤلاء أكثر مما يصلحونه.

(وفرقة أخرى) أحكموا العلوم، وطهروا الجوارح، وبينوها بالطاعات، واجتنبوا ظاهر المعاصي، وتفقدوا أخلاق النفس وصفات القلب من الرياء والحسد والكبر والحقد وطلب العلو، وجاهدوا أنفسهم في التبري منها، وقلعوا من القلب منابتها الجلية القوية؛ ولكنهم مغرورون، إذ في زوايا القلب بقايا من خفايا مكايد الشيطان، وخبايا خدع النفس ما دقّ وغمض، فلم يتفطنوا لها وأهملوها. ومثلهم كمثل من يريد تنقية الزرع من الحشيش، فدار عليه وفتش عن كل حشيش فقلعه، إلا أنه لم يفتش عما لم يخرج رأسه بعد من تحت الأرض ويظن أن الكل قد ظهر وبرز، فلما غفل عنها ظهرت وأفسدت عليه الزرع؛ فهؤلاء إن غيروا تغيروا، وربما تركوا مخالطة الخلق استكبارًا عنهم، وربما نظروا إلى الخلق بعين الحقارة، وربما يجتهد بعضهم في تحسين منظره كيلا ينظر إليه بعين الركاكة.

(وفرقة أخرى) تركوا المهم من العلوم، واقتصروا على علم الفتاوى في الحكومات والخصومات، وتفاصيل المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق لمصالح المعايش، وخصصوا اسم الفقيه، وسموه الفقه وعلم المذهب، وربما ضيعوا مع ذلك علم الأعمال الظاهرة والباطنة، لم يتفقدوا الجوارح، ولم يحرسوا اللسان عن الغيبة، والبطن عن الحرام، والرجل عن السعي إلى السلاطين، وكذا سائر الجوارح، ولم يحرسوا قلوبهم عن الكبر والرياء والحسد وسائر المهلكات.

وهؤلاء مغرورين من وجهين:

أحدهما: من حيث العلم؛ وقد ذكرنا وجه علاجه في كتاب الإحياء، وأن مثلهم كمثل المريض الذي تعلم الداء من الحكماء ولم يعلمه أو يعمله، فهؤلاء مشرفون على الهلاك من حيث إنهم تركوا تزكية أنفسهم وتخليها، واشتغلوا بكتاب الحيض والديات واللعان والظهار، وضيعوا أعمارهم فيها. وإنما غرهم تعظيم الخلق لهم وإكرامهم، ورجوع أحدهم قاضيًا ومفتيًا؛ ويطعن كل واحد منهم في صاحبه، فإذا اجتمعوا زال الطعن.

والثانى: من حيث العلم؛ وذلك لظنهم أنه لاعلم إلا بذلك وأنه الموصل المنجى، وإنما الموصل المنجى حب الله تعالى؛ ولايتصور حب الله تعالى إلا بمعرفته؛ ومعرفته ثلاث: معرفة الذات، ومعرفة الصفات، ومعرفة الأفعال. وهؤلاء مثل من اقتصر على بيع الزاد فى طريق الحاج ولم يعلموا أن الفقه هو الفقه عن الله، ومعرفة صفاته المخوفة والمزجرة، ليستشعر القلب الخوف، ويلازم التقوى، كما قال تعالى: ﴿**فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ**﴾ [التوبة: ١٢٢].

ومن هؤلاء من اقتصر من علم الفقه على الخلافيات، ولا يهمه إلا تعلم طريق المجادلة والإلزم وإفحام الخصم ودفع الحق لأجل الغلبة والمباهاة، فهو طول الليل والنهار فى التفتيش فى مناقضات أرباب المذاهب، والتفقد لعيوب الأقران، وهؤلاء لم يقصدوا العلم وإنما قصدوا مباهاة الأقران، ولو اشتغلوا بتصفية قلوبهم كان خيرًا لهم من علم لا ينفع إلا فى الدنيا والتكبر، وذلك ينقلب فى الآخرة نارًا تلظَّى.

وأما أدلة المذهب فيشمل عليها كتاب الله وسنة رسول ﷺ فما أقبح غرور هؤلاء!

(وفرقة أخرى) اشتغلوا بعلم الكلام والمجادلة، والرد على المخالفين وتتبع مناقضاتهم، واستكثروا من علم المقولات المختلفة، واشتغلوا بتعليم الطريق فى مناظرة أولئك وإفحامهم، ولكنهم على فرقتين: إحداهما ضالة مضلة والأخرى محقة، أما غرور الفرقة الضالة فلغفلتها على ضلالتها وظنها بنفسها النجاة، وهم فرق كثيرة يكفر بعضهم بعضًا؛ وإنما ضلوا من حيث إنهم لم يحكموا لشروط الأدلة ومنهاجها، فرأوا الشبهة دليلاً والدليل شبهة. وأما غرور الفرقة المحقة فمن حيث إنهم ظنوا الجدل أنه أهم الأمور وأفضل القربات فى دين الله، وزعموا أنه لا يتم لأحد دينه ما لم يبحث، وأن من صدق الله من غير بحث وتحرير لدليل فليس بمؤمن ولا بكامل ولا بمقرب عند الله تعالى. ولم يلتفتوا إلى القرن الأول، وأن النبى ﷺ شهد لهم بأنهم خير الخلق ولم يطلب منهم الدليل. وروى أبوا أمامة الباهلى ﷺ عن النبى ﷺ أنه قال: «**مَا ضَلَّ قَوْمٌ قَطّ إلاَّ أُوتُوا الجَدَلَ**».

(وفرقة أخرى) اشتغلوا بالوعظ، وإعلاء رتبة من يتكلم فى أخلاق النفس وصفات القلب، من الخوف والرجاء والصبر والشكر والتوكل والزهد واليقين والإخلاص والصدق. وهم مغرورون لأنهم يظنون أنهم إذا تكلموا بهذه الصفات ودعوا الخلق إليها فقد اتصفوا بها، وهم منفكون عنها إلا من قدر يسير لا ينفك عنه عوام المسلمين. وغرور هؤلاء أشد الغرور، لأنهم يعجبون بأنفسهم غاية الإعجاب، ويظنون أنهم ما يبحروا فى علم المحبة إلا وهم من الناجين عند الله، وأنهم مغفور لهم بحفظهم لكلام الزهاد مع خلوهم من العمل.

وهؤلاء أشد غرورًا ممن كان قبلهم، لأنهم يظنون أنهم يحببون فى الله ورسوله، وما قدروا على تحقيق دقائق الإخلاص إلا وهم مخلصون، ولا وقفوا على خفايا عيوب النفس إلا وهم عنها منزهون، وكذلك جميع الصفات، وهم أحب فى الدنيا من كل أحد،

ويظهرون الزهد فى الدنيا لشدة حرصهم عليها وقوة رغبتهم فيها، ويحثون على الإخلاص وهم غير مخلصين، ويظهرون الدعاء إلى الله وهم منه فارون، ويخوفون بالله وهم منه آمنون، ويذكرون بالله وهم ناسون، ويقربون إلى الله وهم منه متباعدون، ويذمون الصفات المذمومة وهم بها متصفون، ويصرفون الناس عن الخلق وهم على الخلق أشدهم حرصًا، لو منعوا عن مجالسهم التى يدعون فيها الناس إلى الله لضاقت عليهم الأرض بما رحبت. ويزعمون أن غرضهم إصلاح الخلق، ولو ظهر من أقران أحدهم من أقبل الخلق عليه ومن صلحوا على يديه لمات غمًا وحسدًا، ولو أثنى واحد من المترددين إليه على بعض أقرانه لكان أبغض خلق الله إليه. فهؤلاء أعظم غرورًا، وأبعد عن التنبيه والرجوع إلى السداد.

(وفرقة أخرى) عدلوا عن المهم الواجب فى الوعظ وهم وعاظ أهل هذا الزمان كافة، إلا من عصمه الله، فاشتغلوا بالطاعات والشطح وتلفيق كلمات خارجة عن قانون الشرع والعدل طلبًا للإغراق. وطائفة اشتغلوا بتيارات النكت وتسجيع الألفاظ وتلفيقها، وأكثر همهم فى الأسجاع والاستشهاد بأشعار الوصال والفراق. وغرضهم أن يكثر فى مجلسهم التواجد والزعقات ولو على أغراض فاسدة. فهؤلاء شياطين الإنس ضلوا وأضلوا، فإن الأولين إن لم يصلحوا أنفسهم فقد أصلحوا غيرهم وصححوا كلامهم ووعظهم؛ وأما هؤلاء فإنهم يصدون عن سبيل الله، ويجرون الخلق إلى الأغراض والغرور بالله بلفظ الخرافة، جراءة على المعاصى ورغبة فى الدنيا، لاسيما إذا كان الواعظ متزينًا بالثياب والخيلاء والمرائى، ويعظهم بالقنوط من رحمة الله حتى ييأسوا من رحمته.

(وفرقة أخرى منهم) قنعوا بكلام الزهاد وأحاديثهم فى ذم الدنيا، فيعيدونها على نحو ما يحفظون من كلام من حفظوه من غير إحاطة بمعانيه، فيعظهم الواحد منهم بذلك على المنابر، وبعضهم يعظون الناس فى الأسواق مع الجلساء، ويظن أنه ناج عند الله وأنه مغفور له بحفظه كلام الزهاد مع خلوه من العمل. وهؤلاء أشد غرورًا ممن كان قبلهم.

(وفرقة أخرى) استغرقوا أوقاتهم فى علم الحديث، أعنى فى سماعه، وجمع الروايات الكثيرة منه، وطلب الأسانيد الغريبة العالية. فَهَمُّ أحدهم أن يدور فى البلاد ويروى عن الشيوخ ليقول: أنا أروى عن فلان، ولقيت فلانًا، ومعى من الأسانيد ما ليس مع غيرى.

وغرورهم من وجوه: منها أنهم كحملة الأسفار، فإنهم لا يصرفون العناية إلى فهم السنة وتدبر معانيها، وإنما هم مقتصرون على النقل، ويظنون أن ذلك يكفيهم؛ وهيهات! بل المقصود من الحديث فهمه وتدبر معانيه، فالأول فى الحديث السماع ثم الحفظ ثم الفهم ثم العمل ثم النشر، وهؤلاء اقتصروا على السماع ثم لم يحكموه، وإن كان لا فائدة فى الاقتصار عليه والحديث فى هذا الزمان يقرأه الصبيان، وهم غرة غافلون، والشيخ الذى يقرأ عليه ربما يكون غافلاً حتى يصحف الحديث ولا يعلم، وربما ينام ويروى عنه الحديث وهو

لا يعلم. وكل ذلك غرور، وإنما الأصل فى استماع الحديث أن يسمعه من رسول الله ﷺ، فيحفظه كما سمعه ويؤديه كما حفظه، فتكون الرواية عن الحفظ والحفظ عن السماع، فإن عجز عن سماعه من رسول الله ﷺ سمعه من الصحابة أو من التابعين، فيصير سماعه منهم كسماعه من رسول الله ﷺ، وهو أن يصغى ويحفظ ويرويه كما حفظه حتى لا يشك فى حرف واحد منه، وإن شك فيه لم يجز له أن يرويه أو يعلم به ويخطئ به إن أخطأ.

وحفظ الحديث يكون بطريقين: أحدهما بالقلب مع الاستدامة والذكر. والثانى يكتب ما يسمع ويصحح المكتوب ويحفظه كيلا تصل إليه يد من يغيره، ويكون حفظه للكتاب أن يكون فى خزانته محروسًا حتى لا تمتد إليه يد غيره أصلاً. ولا يجوز أن يكتب سماع الصبى والغافل والنائم، ولو جاز ذلك لجاز أن يكتب سماع الصبى فى المهد.

وللسماع شروط كثيرة، والمقصود من الحديث العمل به ومعرفته، وله مفهومات كثيرة كما للقرآن، وروى عن أبى سفيان بن أبى الخير المنهى أنه حضر فى مجلس زاهر بن أحمد السرخسى، فكان أول حديث روى قوله ﷺ: «مِنْ حُسْنِ إِسْلاَمِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لاَيَعْنيه»، فقام وقال: يكفينى هذا حتى أفرغ منه ثم أسمع غيره. فهكذا هو سماع الناس.

(وفرقة أخرى) اشتغلوا بعلم النحو واللغة والشعر وغريب اللغة، واغتروا به وزعموا أنهم قد غفر لهم وأنهم من علماء الأمة، إذ قوام الدين والسنة بعلم النحو واللغة، فأفنوا أعمارهم فى دقائق النحو واللغة. وذلك غرور عظيم، فلو عقلوا لعلموا أن لغة العرب كلغة الترك، والمضيع عمره فى لغة العرب كالمضيع عمره فى لغة الترك والهند وغيرهم، وإنما فارقهم من أجل ورود الشرع. وكفى من اللغة علم الغريب فى الكتاب والسنة، ومن النحو ما يتعلق بالكتاب والسنة، وأما التعمق فيه إلى درجة لا تتناهى فهو فضول مستغنى عنه وصاحبه مغرور.

الصنف الثانى من المغرورين أصحاب العبادات والأعمال

والمغرورون منهم فرق كثيرة:

منهم من غروره فى الصلاة.

ومنهم من غروره فى تلاوة القرآن.

ومنهم من غروره فى الحج.

ومنهم من غروره فى الجهاد.

ومنهم من غروره فى الزهد.

(ومنهم فرقة) أهملوا الفرائض واشتغلوا بالنوافل، وربما تعمقوا فيها حتى يخرجوا إلى السرف والعدوان، كالذى تغلب عليه الوسوسة فى الوضوء، فيبالغ ولا يرتضى الماء المحكوم بطهارته فى الشرع، ويقدر الاحتمالات البعيدة قريبة فى النجاسة؛ وإذا آل الأمر

إلى أكل الحرام، قدر الاحتمالات القريبة بعيدة، وربما أكل الحرام المحض. ولو انقلب هذا الاحتياط من الماء إلى الطعام لكان أولى، بدليل سير الصحابة ﷺ، فقد توضأ عمر ﷺ بماء فى جرة نصرانية مع احتمال ظهور النجاسة، وكان مع هذا يدع أبوابًا من الحلال خوفًا من الوقوع فى الحرام.

(وفرقة أخرى) غلبت عليهم الوسوسة فى نية الصلاة، فلا يدعه الشيطان يعقد نية صحيحة، بل يوسوس عليه حتى تفوته الجماعة، وربما أخرج الصلاة عن الوقت؛ وإن أتم تكبيرة الإحرام يكون فى قلبه تردد فى صحة نيته. وقد يتوسوس فى التكبير حتى يغير صفة التكبير لشدة الاحتياط ويفوته الاستماع للفاتحة، ويفعل ذلك فى أول الصلاة ثم يغفل فى جميعها، ولا يحضر قلبه ويغتر بذلك، ولم يعلم أن حضور القلب فى الصلاة هو الواجب، وإنما غره إبليس وزين له ذلك وقال له: ذلك الاحتياط تتميز به عن العوام وأنت على خير عند ربك.

(وفرقة أخرى) غلبت عليهم الوسوسة فى إخراج حروف الفاتحة من مخارجها وكذلك سائر الأذكار، فلا يزال يحتاط فى التشديدات والفرق بين الضاد والظاء؛ لا يهمه غير ذلك، ولا يتفكر فى أسرار فاتحة الكتاب ولا فى معانيها؛ ولم يعلم أنه لم يكلف الخلق فى تلاوة القرآن من تحقيق مخارج الحروف إلا بما جرت به عادتهم فى الكلام؛ وهذا غرور عظيم. ومثلهم من حمل الرسالة إلى مجلس السلطان وأمر أن يؤديها على وجهها، فأخذ يؤدى الرسالة ويتأنق فى مخارج الحروف ويعيدها مرة بعد أخرى، وهو مع ذلك غافل عن مقصود الرسالة ومراعاة حرمة المجلس؛ فهذا لا شك أنه تقام عليه السياسة، ويرد إلى دار المجانين، ويحكم عليه بفقد العقل.

(فرقة أخرى) اغتروا بتلاوة القرآن، فيهدروا به هدرًا، ربما يختمون فى اليوم والليلة ختمة، وألسنتهم تجرى به وقلوبهم تتردد فى أودية الأمانى والتفكر فى الدنيا، ولا تتفكر فى معانى القرآن لينزجر بزواجره، ويتعظ بمواعظه، ويقف عند أوامره ونواهيه، ويعتبر بمواضع الاعتبار منه، ويتلذذ به من حيث المعنى لامن حيث النظم. فمن قرأ كتاب الله فى اليوم والليله مائة مرة ثم ترك أوامره ونواهيه، يستحق العقوبة. وربما كان له صوت طيب، فهو يقرأ ويتلذذ به ويغتر باستلذاذه، ويظن أن ذلك لذة مناجاة الله سبحانه وسماع كلامه، وهيهات ما أبعده! إذ لذته فى صوته، فلو أدرك لذة كلام الله ما نظر إلى صوته وطيبه، ولا تعلق خاطره به، ولذة كلام الله إنما هى من حيث المعنى؛ فهو فى غرور عظيم.

(وفرقة أخرى) اغتروا بالصوم، وربما صاموا الدهر وصاموا الأيام الشريفة، وهم فى ذلك لا يحفظون ألسنتهم عن الغيبة، ولا خواطرهم عن الرياء، ولا بطونهم عن الحرام عند الإفطار ولا من الهذيان بأنواع الفضول. فهؤلاء تركوا الواجب، واتبعوا المندوب، وظنوا أنهم يسلمون، وهيهات! إنما يسلم من أتى الله بقلب سليم؛ فهم مغرورون أشد الغرور.

(وفرقة أخرى) اغتروا بالحج من غير خروج عن المظالم وقضاء الديون واسترضاء الوالدين وطلب الزاد الحلال، وربما ضيعوا الصلاة المكتوبة في الطريق، وربما عجزوا عن طهارة الثوب والبدن، ويتعرضون لمكس الظلمة حتى يؤخذ منه، ولا يحترزون في الطريق من الرفث والخصام. وربما جمع بعضهم الحرام فأنفقه على الرفقاء في الطريق وهو يطلب به الرياء والسمعة، فيعصي الله في كسب الحرام أولاً، وفي إنفاقه للرياء ثانيًا. ثم يبلغ إلى الكعبة ويحضرها بقلب ملوث برذائل الأخلاق وذميم الصفات، وهو مع ذلك يظن أنه على خير من ربه، وهو مغرور.

(وفرقة أخرى) أخذت في طريق الخشية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وينكر أحدهم على الناس ويأمرهم بالخير وينسى نفسه، وإذا أمرهم بالخير عنف وطلب الرياسة والعزة، وإذا باشر منكرًا وأنكره عليه أحد غضب وقال: أنا المحتسب فكيف تنكر عليّ؟! وقد يجمع الناس في المسجد، ومن تأخر عنه أغلظ عليه في القول. وربما عرض له الرياء والسمعة والرياسة، وعلامته أنه لو قام بالمسجد غيره تجرأ عليه، ومنهم من يؤذن ويظن أنه يؤذن لله، ولو جاء غيره وأذن في وقت غيبته قامت عليه القيامة وقال: لم آخذ حقي وزوحمت. ومنهم من يتقيد إمام مسجد يظن أنه خير، وغرضه أن يقال إنه إمام مسجد كذا وكذا؛ وعلامته أنه لو قدم غيره وإن كان أورع منه وأعلم ثقل عليه ذلك.

(وفرقة أخرى) جاوروا بمكة والمدينة واغتروا بهما، ولم يراقبوا قلوبهم ولم يطهروا ظواهرهم وبواطنهم، وربما كانت قلوبهم متعلقة ببلادهم ومنازلهم. وتراهم يتحدثون بذلك ويقولون جاورت بمكة كذا وكذا سنة. وهذا مغرور، لأن الأقوم له أن يكون في بلده وقلبه متعلق بمكة. وإن جاور فليحفظ حق الجوار؛ فإن جاور بمكة حفظ حق الله، وإن جاور بالمدينة حفظ حق النبي ﷺ، ومن يقدر على ذلك. وهؤلاء مغرورون بالظواهر، فظنوا أن الحيطان تنجيهم، وهيهات! وربما لم تسمح نفسه بلقمة يتصدق بها على فقير. وما أصعب المجاورة في حق الخلق، فكيف مجاورة الخالق! وما أحسن مجاورته بحفظ جوارحه وقلبه.

(وفرقة أخرى) زهدت في المال، وقنعت من الطعام واللباس بالدون، ومن المسكن بالمساجد، وظنوا أنهم أدركوا رتبة الزهاد، وهم مع ذلك راغبون في الرياسة والجاه. والرياسة إنما تحصل بأحد أشياء: إما بالعلم، أو بالوعظ، أو بمجرد الزهد؛ فقد تركوا أهون الأمرين وبادروا إلى أعظم المهلكات؛ لأن الجاه أعظم من المال، ولو ترك أحدهم الجاه وأخذ المال كان إلى السلام أقرب.

وهؤلاء مغرورون، ظنوا أنهم من الزهاد في الدنيا وهم لم يعلموا معنى الدنيا، وربما يندم الأغنياء على الفقراء. ومنهم من يعجب بعلمه، ومنهم من يؤثر الخلوة والعزلة وهو عن شروطها خال، ومنهم من يعطى له المال فلا يأخذه خيفة أن يقال بطل زهده، وهو راغب في المال والناس، خائف من ذمهم. ومنهم من شدد على نفسه في أعمال الجوارح حتى يصلي في

اليوم والليلة مثلاً ألف ركعة ويختم القرآن، وهو فى جميع ذلك لا تخطر له مراعاة القلب وتفقده من الرياء والكبر والعجب وسائر المهلكات. وربما يظن أن العبادات الظاهرة ترجح بها كفة الحسنات، وهيهات! ذرة من ذى تقوى، وخلق واحد من خلق الأكياس، أفضل من أمثال الجبال عملاً بالجوارح. ثم قد يغتر بقول من يقول له: إنك من أوتاد الأرض، أو من أولياء الله وأحبابه؛ فيفرح بذلك ويظهر له تزكية نفسه، ولو شوتم يومًا واحدًا مرتين أو ثلاثًا لكفر وجاهد من فعل ذلك به، وربما قال لمن سبه: لا يغفر الله لك أبدًا.

(وفرقة أخرى) حرصت على النوافل ولم يعظم اعتدادها بالفرائض؛ فترى أحدهم يفرح بصلاة الضحى وصلاة الليل وأمثال هذه النوافل، ولا يجد لصلاة الفرض لذة ولاخيراً من الله تعالى، لشدة حرصه على المبادرة بها فى أول الوقت، وينسى قوله ﷺ: **«مَا تَقَرَّبَ الْمُتَقَرِّبُونَ بِأَفْضَلَ مَنْ أَدَاءِ مَا افْتَرَضَهُ اللهُ عَلَيْهِمْ»**.

وترك الترتيب بين الخيرات من جملة الشرور، بل قد يتعين على الإنسان فرضان: أحدهما يفوت والآخر لا يفوت، أو نفلان: أحدهما يضيق وقته والآخر يتسع وقته، فإن لم يحفظ الترتيب كان مغروراً ونظائر ذلك أكثر من أن تحصى فإن المعصية ظاهرة، وإنما الغامض تقديم بعض الطاعات على بعض كتقديم الفرائض كلها على النوافل، وتقديم فروض الأعيان على فروض الكفايات التى لا قائم بها على ما قام بها غيره، وتقديم الأهم من فروض الأعيان على ما دونه، وتقديم ما يفوت مثل تقديم حق الوالدة على الوالد، وتقديم نفقة الأبوين على الحج، وتقديم الجمعة إذا حضر وقتها على العيد، وتقديم الدين على فروض غيره. وما أعظم العبد أن ينفذ ذلك ويتنبه، ولكن الغرور فى الترتيب دقيق خفى لايقدر عليه إلا العلماء الراسخون فى العلم.

الصنف الثالث من المغرورين أرباب الأموال

وهم فرق كثيرة:

(فرقة منهم) يحرصون على بناء المساجد والمدارس والرباطات والقناطر والصهاريج للماء وما يظهر للناس، ويكتبون أسماءهم بالآجر عليه ليتخلد ذكرهم ويبقى بعد الموت أثرهم، وهم يظنون أنهم استحقوا المغفرة بذلك؛ وقد اغتروا فيه من وجهين:

أحدهما: أنهم اكتسبوها من الظلم والشبهات والرشا والجاهات المحظورة؛ فهؤلاء قد تعرضوا لسخط الله فى كسبها، فإذا عصوا الله فى كسبها فالواجب عليهم التوبة ورد الأموال إلى أهلها إن كانوا أحياء، وإلى ورثتهم إن لم يبق منهم أحد وانقرضوا. فإن لم يبق لهم ورثة فالواجب عليهم أن يصرفوها فى أهم المصالح، وربما يكون الأهم التفرقة على المساكين؛ فأى فائدة فى بنيان يستغنى عنه ويموت ويتركه؟ وإنما غلب على هؤلاء الرياء والشهرة ولذة الذكر.

والوجه الثانى: أنهم يظنون بأنفسهم الإخلاص وقصد الخير فى الإنفاق وعلو الأبنية، ولو كلف واحد منهم أن ينفق ديناراً على مسكين لم تسمح نفسه بذلك، لأن حب المدح والثناء مستكين فى باطنه.

(وفرقة أخرى) ربما اكتسبوا المال الحلال، واجتنبوا الحرام، وأنفقوا على المساجد. وهم أيضًا مغرورون من وجهين:

أحدهما: الرياء وطلب السمعة والثناء؛ فإنه ربما يكون فى جواره أو بلده فقراء وصرف المال إليهم أهم، فإن المساجد كثيرة والغرض منها الجامع وحده فيجزئ عن غيره، وليس الغرض بناء مسجد فى كل سكة وفى كل درب؛ والمساكين والفقراء محتاجون. وإنما عليهم دفع المال فى بناء المساجد لظهور ذلك بين الناس، ولا يسمع فى الثناء عليه من عند الخلق، فيظن أنه يعمل لله وهو يعمل لغير الله (ونيته أعلم بذلك، وإنما نيته عليه غضب، وقال إنما قصدت الله عز وجل).

والثانى: أنه يصرف فى زخرفة المساجد وتزيينها بالنقوش المنهى عنها الشاغلة قلوب المصلين، لأنهم ينظرون إليها فتشغلهم عن الخضوع فى الصلاة عن حضور القلب وهو المقصود من الصلاة؛ فكل ما طرأ فى صلاتهم وفى غير صلاتهم فهو فى ميزان الذى بناه، إذ لايحل تزيين المسجد بوجه. قال الحسين ﷺ: لما أراد رسول الله ﷺ أن يبنى مسجده بالمدينة أتاه جبريل وقال: ابنه سبعة أذرع طولاً فى السماء فلا تزخرفه، ولا تنقشه، فهؤلاء رأوا المنكر معروفًا واتكلوا عليه فهم مغرورون فى ذلك.

(وفرقة أخرى) ينفقون الأموال فى الصدقات على الفقراء والمساكين ويطلبون به المحافل الجامعة، ومن الفقراء من عادته الشكر وإفشاء المعروف، فيكرهون التصدق فى السر، ويرون إخفاء الفقير لما يأخذ منهم خيانة عليهم وكفرانًا للمعروف، وربما تركوا جيرانهم جائعين؛ ولذلك قال ابن عباس ﷺ: فى آخر الزمان يكثر الحاج بلا سبب؛ يهوى لهم السفر، ويبسط لهم فى الرزق، ويرجعون مجرمين مسلوبين يهوى بأحدهم بعيره بين القفار والرمال، وجاره مأثور إلى جنبه فلا يواسيه ولا يتفقده.

(وفرقة أخرى) من أرباب الأموال؛ يحتفظون بالأموال ويمسكونها بحكم البخل، ويشتغلون بالعبادة البدنية التى لا يحتاجون فيها إلى نفقة كصيام النهار وقيام الليل وختم القرآن. وهم مغرورون، لأن البخل المهلك قد استولى على بواطنهم، فهم محتاجون إلى قمعه بإخراج المال، فاشتغلوا بطلب فضائل وهم مشتغلون عنها. ومثلهم كمثل من دخلت فى ثوبه حية وقد أشرف على الهلاك، فاشتغل بطلب السكنجبين ليسكن به الصفراء؛ ومن لدغته الحية كيف يحتاج إلى ذلك؟ وقيل لبشر الحافى: إن فلانًا كثير الصوم والصلاة؛ فقال: المسكين ترك حاله ودخل فى حال غيره، إنما حال هذا إطعام الطعام للجائع والإنفاق على المساكين، فهو أفضل له من تجويع نفسه ومن صلاته مع جمعه الدنيا ومنعه الفقراء.

(وفرقة أخرى) غلب عليها البخل، فلا تسمح نفوسهم إلا بأداء الزكاة فقط، ثم إنهم يخرجونها من المال الخبيث الردئ الذين يرغبون عنه. ويطلبون من الفقراء من يخدمهم ويتردد فى حوائجهم، أو من يحتاجون إليه فى المستقبل للاستئجار له فى الخدمة، ومن لهم فيه على الجملة غرض، ويسلمونها إلى شخص يعينه واحد من الكبار ممن يستظهر بخشيته لينال بذلك عنده منزلة فيقوم بحاجته، وكل ذلك مفسد للنية ومحبط للعمل، وصاحبه مغرور ويظن أنه مطيع لله وهو فاجر، إذ يطلب بعبادة الله غرضًا من غيره. فهذا وأمثاله مغرورون بالأموال.

(وفرقة أخرى) من عوام الخلق وأرباب الأموال والفقراء، اغتروا بحضور مجالس الذكر واعتقدوا أن ذلك يغنيهم ويكفيهم، فاتخذوا ذلك عادة، ويظنون أن لهم أجرًا على مجرد سماع الوعظ دون العمل ودون الاتعاظ؛ فهم مغرورون، لأن فضل مجالس الذكر إنما يحصل لكونها مرغبة فى الخير، فإن لم تهيج الرغبة فلا خير فيها. والرغبة محمودة لأنها تبعث على العمل، فإن لم تبعث على العمل فلا خير فيها. وربما يغتر بما يسمعه من الوعظ، وربما تداخله رقة كرقة النساء فيبكى، وربما يسمع كلامًا مخوفًا فلا يزال يصفر بين يديه ويقول: يا سلام سلم، ونعوذ بالله، وحسبى الله، ولاحول ولا قوة إلا بالله، ويظن أنه قد أتى بالخير كله وهو مغرور. وإنما مثله كمثل المريض الذى يحضر مجالس الأطباء ويسمع ما يصفونه من الأدوية ولايفعلها ولا يشتغل بها ويظن أنه يجد الراحة بذلك؛ وكذلك الجائع الذى يحضر عند من يصف الأطعمة اللذيذة، فكل وعظ لا يغير منك صفة تغييرًا تتغير به أفعالك، حتى تقبل إلى الله عز وجل وتعرض عن الدنيا وتقبل إقبالاً قويًا وإن لم تفعل بذلك الوعظ كان زيادة حجة عليك، فإذا رأيته وسيلة لك كنت مغرورًا.

الصنف الرابع من المغرورين المتصوفة

وما أغلب الغرور على هؤلاء! وما المتصوفة من أهل هذا الزمان إلا من عصمه الله. اغتروا بالزى والمنطق والهيئة، فشابهوا الصادقين من الصوفية فى زيهم، وهيئتهم، وألفاظهم، وآدابهم، ومراسمهم، واصطلاحاتهم، وأحوالهم الظاهرة فى السماع، والرقص، والطهارة، والصلاة، والجلوس على السجادة مع إطراق الرأس، وإدخاله فى الجيب كالمتفكر مع تنفيس الصعداء، وفى خفض الصوت فى الحديث، وفى الصياح، إلى غير ذلك. فلما تعلموا ذلك ظنوا أن ذلك ينجيهم، فلم يتعبوا أنفسهم قط بالمجاهدة، والرياضة، والمراقبة للقلب، وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الجلية والخفية؛ وكل ذلك من منازل التصوف. ثم إنهم يتكالبون على الحرام والشبهات وأموال السلاطين، ويتنافسون فى الرغيف والفلس والحبة، ويتحاسدون على النقير والقطمير، ويمزق بعضهم أعراض بعض مهما خالفه فى شىء من غرضه.

فهؤلاء غرورهم ظاهر، فمثلهم كمثل عجوز سمعت أن الشجعان والأبطال والمقاتلين ثبتت أسماؤهم فى الديوان، فتزينت بزيهم، ووصلت إلى الملك، فعرضت على ميزان العرض فوجدت عجوز سوء، فقيل لها: أما تستحى فى استهزائك بالملك؟ اطرحوها حول الفيل! فطرحت حول الفيل فركضها حتى قتلها.

(وفرقة أخرى) زادت على هؤلاء فى الغرور، إذ صعب عليها الاقتداء فى بذالة الثياب والرضا بالدون فى المطعم والمنكح والمسكن، وأرادت أن تتظاهر بالتصوف، ولم تجد بدًّا من التزيى بزيهم، فتركت الخز والإبريسم وطلبت المرقعات النفيسة والفوط الرفيعة والسجادات المصوغات، وقيمتها أكثر من قيمة الخز والإبريسم. ولا يجتنبون معصية ظاهرة فكيف بالباطنة! وإنما غرضهم رغد العيش وأكل أموال السلاطين، وهم مع ذلك يظنون بأنفسهم الخير. وضرر هؤلاء على المسلمين أشد من ضرر اللصوص، لأنهم هؤلاء يسرقون القلوب بالزى، فيقتدى بهم غيرهم فيكونون سبب هلاكهم، فإن اطلع على فضائحهم فيظنون أن أهل التصوف كذلك، فيصرخون بذم الصوفية على الإطلاق.

(وفرقة أخرى) ادعت علم المكاشفة، ومشاهدة الحق، ومجاوزة المقامات، والوصل والملازمة فى عين الشهود، والوصول إلى القرب؛ ولا يعرف ذلك والوصول إليه إلا باللفظ والاسم، فتلقف من الألفاظ الطامة كلمات، فهو يرددها وهو يظن أن ذلك من أعلى علم الأولين والآخرين. فهو ينظر إلى الفقهاء والمقرئين والمحدثين وأصناف العلماء بعين الازدراء فضلاً عن العوام، حتى إن الفلاح ليترك فلاحته والحائك حياكته ويلازمهم أيامًا معدودة، فيتلقف تلك الكلمات الزائفة فتراه يرددها كأنه يتكلم عن الوحى، ويخبر عن أسرار، ويستحقر بذلك جميع العباد والعلماء، فيقول فى العباد: أجراء متعبون؛ ويقول فى العلماء: إنهم بالحديث محجوبون، ويدعى لنفسه أنه الواصل إلى الحق وأنه من القربين، وهو عند الله من الفجار المنافقين، وعند أرباب القلوب من الحمقاء الجاهلين؛ لم يحكم قط علمًا، ولم يهذب خلقًا، ولم يرتب علمًا، ولم يراقب قلبًا سوى اتباع الهوى وتلقف الهذيان، ولو اشتغل بما ينفعه كان أحسن له.

(فرقة أخرى) جاوزت هؤلاء، فأحسنت الأعمال وطلبت الحلال، واشتغلت بتفقد القلب، وصار أحدهم يدعى المقامات من الزهد والتوكل والرضا والحب، من غير وقوف على حقيقة هذه المقامات وشروطها وعلاماتها وآفاتها. فمنهم من يدعى الوجد ويحب الله، ويزعم أنه واله بالله، ولعله قد يخيل بالله خيالات فاسدة هى بدعة أو كفر، فيدعى حب الله قبل معرفته، وذلك لا يتصور قط. ثم إنه لا يخلو قط ما يفارقه ما يكرهه الله، وإيثار هوى نفسه على أوامر الله، وعن ترك بعض الأمور حياء من الخلق؛ ولو خلا بنفسه لما تركها حياء من الله، وليس يدرى أن كل ذلك يناقض الحب. وبعضهم يميل إلى القناعة والتوكل، فيخوض البوادى من غير زاد ليصحح التوكل، وليس يدرى أن ذلك بدعة لم

تنقل عن الصحابة وسلف هذه الأمة، وقد كانوا أعلم بالتوكل منه، ما فهموا من التوكل المخاطرة بالروح وترك الزاد، بل كانوا يأخذون الزاد وهم متوكلون على الله لا على الزاد، وهذا ربما يترك الزاد وهو متوكل على سبب من الأسباب واثق به.

وما مقام من المقامات المنجية إلا وفيه غرور قد اغتر بها قوم؛ وقد ذكرنا مداخل الآفات فيها فى ربع المنجيات من كتاب الإحياء.

(وفرقة أخرى) ضيقت على أنفسها أمر القوت، حتى طلبت منه الحلال الخالص، وأهملت تفقد القلب والجوارح من غير هذه الخصلة الواحدة.

ومنهم من استعمل الحلال فى مطعمه وملبسه ومكسبه ويتعمق فى ذلك، ولم يدر أن الله لم يرض من العباد إلا بالكمال فى الطاعات، فمن اتبع البعض وأهمل البعض فهو مغرور.

(وفرقة أخرى) ادعت حسن الخلق والتواضع والسماحة، فقصدوا لخدمة الصوفية، فجمعوا قومًا وتكلفوا خدمتهم، واتخذوا ذلك شبكة لحطام الدنيا وجمعًا للمال؛ وإنما غرضهم التكثير والتكبير، وهم يظهرون الخدمة والتواضع، ويطلبون أن غرضهم الارتفاق وغرضهم الاستتباع، ويظهرون أن غرضهم الخدمة، وهم يجمعون الحرام والشبهات لينفقوا عليهم فتكثر أتباعهم وينتشر بتلك الخدمة ذكرهم. ومنهم من يأخذ من أموال السلاطين وينفق عليهم، ومنهم من يأخذ من أموال السلاطين والظلمة لينفق ذلك بطريق الحج على الصوفية، ويزعم أن غرضه البر والإنفاق. والباعث للجميع إنما هو الرياء والسمعة، وذلك إهمالهم لجميع أوامر الله ورضاهم بأخذ الحرام والإنفاق منه؛ ومثال الذى ينفق المال الحرام فى طريق الحج، كمن يعمر مسجدًا ويطينه بالعَذِرَة وغيرها من النجاسات ويزعم أن قصده العمارة.

(وفرقة أخرى) اشتغلت بالمجاهدة وتهذيب الأخلاق وتطهير النفس من عيوبها، فصاروا يتعمقون فيها، فاتخذوا البحث عن عيوب النفس ومعرفة خدعها علمًا وحرفة لهم؛ فهم فى جميع أحوالهم مشتغلون بالتحفظ من عيوب النفس باستنباط دقيق الكلام فى آفاتها، فيقولون: هذا فى النفس عيب، والغفلة عن كونه عيبًا عيب، ويستعفون فيه بكلمات مسلسلة، فضيعوا فى ذلك أوقاتهم، لأنهم وقعوا مع أنفسهم ولم يتعلقوا بخالقهم. ومثلهم من اشتغل بأوقات الحج وعوائقه ولم يسلك طريق الحج، وذلك لا يغنيه عن الحج؛ فهو مغرور.

(وفرقة أخرى) جاوزت هذه المرتبة وابتدءوا سلوك الطريق وانفتحت لهم أبواب المعرفة، فلما شموا من مبادئ المعرفة رائحة، تعجبوا منها وفرحوا بها أعجبتهم غرائبها، فتعلقت قلوبهم بالالتفات إليها والتفكر فيها، وفى كيفية انفتاح بابها عليهم وانسداده على غيرهم. وذلك غرور، لأن عجائب طريق الله ليس لها نهاية، فمن وقف مع كل أعجوبة

وتقيد قصرت خطاه وحرم الوصول إلى المقصد، ومثال ذلك كمن قدم على ملك فرأى على باب ميدانه روضة فيها أزهار وأنوار، ولم يكن قد رآها قبل ذلك ولا رأى مثلها، فوقف ينظر إليها حتى فاته الوقت الذى يكون فيه لقاء الملك، فانصرف خائبًا.

(وفرقة أخرى) جاوزت هؤلاء ولم تلتفت إلى ما يفيض عليها من الأنوار فى الطريق، ولا إلى ما تيسر لهم من العطايا الجزيلة، ولم يلتفتوا إليها ولا عرجوا عليها، بل أخذوا جادين فى السير، فلما قاربوا الوصول ظنوا أنهم وصلوا، فوقفوا ولم يتعدوا ذلك، فغلطوا؛ فإن لله سبحانه وتعالى سبعين حجابًا من نور وظلمة، ولا يصل السالك إلى حجاب من تلك الحجب إلا ويظن أنه قد وصل؛ وإليه الإشارة بقوله تعالى إخبارًا عن إبراهيم عليه السلام: ﴿**فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ**﴾ [الأنعام: ٧٦].